- ٥ -

عائشة فى عصر الخلفاء الراشدين

obeikandl.com

obeikandl.com

لم يكن للسيدة عائشة أى دور سياسى فى خلافة والدها أبى بكر الصديق، أو خلافة الفاروق عمر بن الخطاب. فقد تولى أبو بكر الخلافة عقب وفاة الرسول ﷺ، وسط ظروف صعبة، حيث اجتمع الأنصار يريدون مبايعة سعد بن عبادة بالخلافة..

وذهب الصديق ومعه عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة ابن الجراح.. لحسم هذا الأمر، ودارت مناقشات طويلة، انتهت بمبايعة الصديق.

قالت عائشة رضى الله عنها:

لما توفى رسول الله ﷺ، اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة، فقالوا: منا أمير ومنكم أمير،

وذهب أبو بكر، وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول:

ما أردت بذلك إلا أنى قد هيأت كلامًا أعجبنى خشيت ألا يبلغه أبو بكر.

ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الكلام، فقال فى كلامه:

نحن الأمراء وأنتم الوزراء.

فقال الحباب بن المنذر: لا والله لا نفعل.. منا أمير ومنكم أمير.

فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء، وأنتم الوزراء. فبايعوا عمر أو أبا عبيدة.

فقال عمر: بل نبايعك.. أنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه، وبايع الناس.

وبعد ذلك بويع الصديق بيعة عامة فى مسجد الرسول ﷺ. وعندما تولى الخلافة كان أول خطاب له بعد أن حمد الله وأثنى عليه وقال:

«أما بعد أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أخطأت فقومونى. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوى عندى حتى آخذ الحق

له إن شاء الله، والقـوى فيكم ضعيف عنـدى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قومٌ الجهـاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسولـه، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

وشعر النـاس بالارتياح لخليفتـهم الجديد. فخطبتـه تتسم بالتواضع، والحـرص على أن تكون أيامه امـتدادًا لأيام رسول الله.. حـتى إن أحـدهم قال له بـعد هذه الخـطبة المـوجزة، والرائعة فى مضمونها:

- أصبت يا خليفة الله.

وقال له الصديق:

- يا أخى، لست خليفة الله؛ أنا خليفة رسول الله.

وأخذت الحياة تسير سيرتها..

ثم بدأت الفتن..

هناك من ارتد عن الإسلام.

وهناك من منع الزكاة.

وهناك من ادعى النبوة.

ووسط هذا الجو الملبد بغيوم الفتن والقلق، ظهر معدن الصديق.. لقد أصر أن يذهب جيش أسامة بن زيد الذى أعده الرسول لمحاربة الروم إلى الوجهة التى أرادها الرسول وأن يجابه بهذا الجيش الذى على رأسه أسامة بن زيد أقوى امبراطورية عرفها التاريخ.

وكان من بين جنود هذا الجيش عمر بن الخطاب، فطلب منه الصديق أن يظل معه حتى يكون وزيراً له.

ثم خطب الصديق فى هذا الجيش وأوصاهم بهذه الوصايا الخالدة:

«لا تخونوا ولا تغلوا - أى لا تأخذوا شيئًا من الغنائم قبل القسمة - ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخًا كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكل.. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم بالصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..».

وبدأ الصديق الخلافة

تولى عمر أمر القضاء.

وتولى أبو عبيدة بيت المال.

وتولى عثمان بن عفان أمر الكتابة، وكان خاتمه مكتوبًا عليه فنعم القادر الله.

وعقد الصديق أحد عشر لواء.. للقضاء على الفتن ومدعى النبوة.. فخالد بن الوليد ينطلق نحو طلحة بن خويلد وبعد أن يقضى عليه يذهب للقضاء على مالك بن نويرة.

كما عقد لعكرمة بن أبى جهل للقضاء على مسيلمة الكذاب فى اليمامة، وأمده بمدد على رأسه شرحبيل، كما كلف عمرو بن العاص ليتجه نحو قضاعة.. وغيرهم فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة.. واستطاع الصديق أن يهزم المرتدين مانعى الزكاة وأن يعيد للمسلمين وحدتهم.. ثم يبدأ الفتوحات الإسلامية الكبرى بمواجهة الروم فى الشام، ومجابهة الفرس فى العراق..

وأخذت الحياة تسير فى طريقها..

الإسلام ينتشر فى بقاع الدنيا..

والهزائم تلحق بالروم والفرس..

وبشائر النصر تصل إلى الصديق فى المدينة فيحمد الله، ثم يشرح الله صدره بجمع القرآن الكريم، بعد أن استشهد الكثيرون من الذين يحفظون كتاب الله، وخشية الصديق من

ضياع القـرآن باستشهاد مـن يحفظونه، فقد شـرح الله صدره لجمع القرآن الكريم.

ويمرض الصديق

ويعهد بالخلافة من بعـده لعمر بن الخطاب؛ حتى يواصل ما بـدأه من الفتـوحات، وحتـى يحقق الـعدل، وينشـر لواء الشورى بين المسلمين، وقال لعثمان بن عفان أن يكتب:

«اكتب باسم الله الرحمن الرحـيم هذا ما عهد به أبو بكر ابن أبى قحافـة خليفة رسول الله ﷺ، فى آخر عـهده بالدنيا خارجًا منها، وأول عهده بالآخـرة داخلا فيها، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر، ويتقى فـيها الفاجر، ويصدق الكاذب، إنى أستـخلف عليكـم عمر بن الخـطاب، فإن بر وعـدل، فذلك علمى به، ورأيى فيه، وإن جار وبـدَّل، فلا علم لى بالغيب، وإنى لم آل الله ورسوله ونفسى وإيـاكم خيرًا، فالخير أردت، ولكل امرئ ما اكـتسب من الإثم، وسيعلـم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وخرج ليخطب النـاس ليبايعوا عمر.. فبـايعوه. وعندما استراح الصديق بأنه لم يترك المسلمين بغير خليفة، أخذ ينصح عمر بما يجب أن يكون عليه فى حكمه.

ودعا الصديق ابنته عائشة وقال لها:

«أما بعد يا بنيتى، فإن أحب الناس إلىَّ غنى أنت، وإن أعز الناس علىَّ فقرًا أنت. وإنى كنت نحلتك حائطًا - بستانًا - وإنى أحب أن ترديه علىَّ، فيكون ذلك قسمة بين الورثة فألقى ربى حين ألقاه، ولم أفضل بعض ولدى على بعض».

ووافقت عائشة، وقال لها والدها العظيم:

«إننا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارًا ولا درهمًا. ولكنا أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، فانظروا ما زاد فى مالى منذ دخلت الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدى».

وكانت آخر وصايا الصديق لخليفته عمر أن يمد جيش المثنى بن حارثة بالمدد الذى يساعده على الهجوم على الفرس.

واشتد المرض بالصديق، وكانت تمرضه زوجته أسماء بنت عميس، وعائشة.. وأخذت عائشة تقول:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فقال لها الصديق:

- ليس كذلك يا أم المؤمنين، ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

[ق: ١٩]

وكانت آخر كلمات الصديق:

«رب أمتنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين».

لقد مات بعد غروب شمس يوم الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة للهجرة.

ودفن إلى جوار رسول الله. رأسه عند كتف النبى ﷺ.

ووقفت أم المؤمنين عائشة على قبره باكية وقالت:

«نضَّر الله يا أبت وجهك.. وشكر لك صالح سعيك. فقد كنت مُذلاً للدنيا بإعراضك عنها، وللآخرة بإقبالك عليها، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رُزءُك، وأعظم المصائب بعده فقدك، إن كتاب الله ليعدنا بالعزاء عنك حسن العوض منك، فأنا أنتجز من الله موعوده فيك بالصبر عليك، وأستعيضه منك بالدعاء لك، فإنا لله وإنا إليه

راجعون، وعليك السلام ورحمة الله، توديع غير قالية لك، ولا زارية على الحياة منك».

* * *

وفى عهد الفاروق عمر بن الخطاب.. انشغل الناس بالجهاد فى سبيل الله. فالفتوحات الإسلامية فى أوج انتصاراتها.

فقد وقعت فارس بكاملها تحت الحكم الإسلامى، بعد أن سقطت المدائن عاصمتها فى أيدى المسلمين.. وأصبحت الامبراطورية الفارسية التى كانت من أقوى قوى العالم فى هذا العصر تحت السيطرة الإسلامية.. بعد سلسلة من المعارك الدامية بينهم وبين المسلمين.. وأهمها معركة القادسية بقيادة سعد بن أبى وقاص.. الذى استطاع أن يدخل المدائن العاصمة، وعندما دخل قصر كسرى صلى صلاة الشكر لله وقال:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

[الدخان ٢٥-٢٩]

كما هزمهم المسلمون أيضًا عندما حاول الفرس استعادة ملكهم، فأرسل لهم الفاروق جيشًا قوامه أربعون ألف مسلم تحت قيادة النعمان بن مقرن الذى هزمهم فى معركة «نهاوند». وبهذه المعركة لم تقم للفرس قائمة.

وعلى جبهة الشام تم الانتصار الساحق على الروم فى «اليرموك» وغيرها من المعارك.. وتسلم عمر بن الخطاب بنفسه مفاتيح بيت المقدس فى فلسطين فى سنة ١٥هـ من البطريرك (صفرونيوس).. ورفض الصلاة فى مسجد القيامة حتى لا يتحجج من يأتى من بعده من المسلمين فيحول هذه الكنيسة إلى مسجد بحجة أن عمر بن الخطاب صلى بها!

وتم فتح مصر على يد عمرو بن العاص. ووسط هذه الفتوحات التى انشغل الناس بها، وأظلهم عدل عمر، وسماحة الإسلام، وعظمة مبادئه.. تعرض الفاروق عمر بن الخطاب لمؤامرة لاغتياله من قبل المجوس، ونجحت هذه المؤامرة التى كان وراءها (الهرمزان).. الذى هزم فى أحد المعارك، وجاء إلى المدينة وأعلن الإسلام، كما اشترك فى هذه المؤامرة أيضًا (كعب الأحبار) وهو يهودى ادعى هو الآخر الإسلام، ونفذ المؤامرة الدنيئة (أبو لؤلؤة المجوسى).. فطعن

الفاروق أثناء صلاة الفجر، بخنجر مسموم، وطعن نفسه بالخنجر ومات على الفور.

وذهبوا بأمير المؤمنين إلى بيته، وعندما أفاق حمد الله أن الذى قتله لم يسجد لله سجدة واحدة يحاجه به عند الله يوم القيامة.

ورشح ستة على أن يختاروا واحدًا منهم: وهم على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبد الله.

وتوفى الخليفة فى اليوم الثانى لطعنه.. يوم الخميس الموافق ٢٧ من ذى الحجة سنة ٢٣هـ.. وكانت فترة خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وبضعة أيام.

وقبل وفاته أرسل ابنه عبد الله إلى أم المؤمنين عائشة يستأذنها أن يدفن مع صاحبيه الرسول ﷺ والصديق.

وذهب عبد الله، ووجد عائشة تبكى..

قال لها: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

قالت عائشة: قد والله كنت أريده لنفسى ولأؤثرننه به اليوم على نفسى.

ودفن عمر بجانب صاحبيه.

* * *

وتولى الخلافة بعده عثمان بن عفان..

وشعر الناس فى السنوات الأولى من حكمه بالأمن والأمان والمستقبل.. فالفتوحات الإسلامية تواصل زحفها فيما وراء بلاد الفرس، والشمال الإفريقى.. والأموال تتدفق على بيت المال.. وعثمان نفسه ليست فيه شدة عمر وحزمه.. وتم فتح جزيرة قبرص سنة (٢٨هـ).. كما انتصر المسلمون فى معركة "ذات الصوارى" على الأسطول البيزنطى، كما جمع المصحف الشريف، إلى أن ظهرت بعض الروافد التى تجمعت فى النهاية لتحدث الفتنة الكبرى التى أجج أوارها "عبد الله ابن سبأ" وكان يهوديًا وادعى الإسلام.. وقد ساعد على ذلك تولى أقارب عثمان أمور الحكم، وزيادة الثروات فى أيدى البعض كما كان الخليفة نفسه متسامحًا مما أغرى أصحاب الفتنة فى التمادى بها.. وقد انتهت هذه الفتنة باغتيال عثمان، وهو يقرأ القرآن الكريم بعد حصار بيته ومنع الماء عنه.. لقد قتل مظلومًا.. لم يراع قتلته منزلته من الرسول ﷺ وزواجه من ابنتيه.. رقية. وأم كلثوم، وتأثيره فى الإسلام.

* * *

وكانت السيدة عائشة طوال حياة والدها، ومن بعده الفاروق عمر، المرجع فى أمور الدين، بما حفظته من

القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وعلى حد تعبير الأستاذ العقاد:

«ومن أهم الأشياء التى ينبغى أن تلاحظ فى حياة السيدة عائشة بعد النبى ﷺ أنها قضت خلافة أبى بكر وعمر وهى لا تشعر بأن مكانها فى عهد النبى قد تغير، أو بأن أمرًا من أمور السياسة العامة يدعوها إلى التعرض له راضية أو ساخطة. حتى كانت خلافة عثمان فتغيرت هذه الحال، وكان لتغييرها دلالة كبيرة وأثر كبير.

فى عهد أبى بكر كانت أمور السياسة العامة تجرى على أحكام الدين، وتركن منه ومن أصحابه إلى سند ركين، وكان الخليفة أبوها هو أول من يدعوها بأم المؤمنين، وفى عهد عمر كانت أمور السياسة تضطرب أو تسكن ولكنها فى كلتا الحالتين لا تنشعب ولا تؤذن بانصداع، وكان عمر أهيب خليفة عرفه الإسلام، وأحب خليفة إلى عائشة رضى الله عنها. سرت صداقة الأبوين أبى بكر، وعمر إلى بنيهما فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام فى بيت النبى ﷺ، وحفظت لعمر أجمل الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النبى فقال له:

- إن الله هو الذى زوجكما وإنه سبحانه وتعالى لم يدلس بها عليك.

وتم هذا الشكر حين ولى الخلافة فرعى لها المكانة الأولى بين المسلمين، وخص بيت النبى بالحصة العليا من الحفاوة والعطاء.

فمضى العهدان - عهد أبى بكر وعمر - وليس فى الحياة الخاصة ولا فى الحياة العامة ما يشعرها بتغير أو ينزع بها إلى نوازع السياسة، وما تعارض منها أو جنح إلى التخريب والتأليب.

ثم تغيرت الأمور فى عهد عثمان، ولولا هذا التغير لما عرف للسيدة عائشة نصيب من السياسة العامة بعد موت النبى، وهو الموقف الذى تحولت به الأحوال إليه بعد اجتناب السياسة العامة قرابة عشرين سنة، على غير سابقة فى سيرتها الأولى».

* * *

لقد دفعت الأمور فى عهد عثمان السيدة عائشة أن تدخل ميدان السياسة..

وكان أول شىء دفعها إلى ذلك أن العطاء الذى كان قد فرضه عمر بن الخطاب.. وهو من هو عمر.. عدلا، أن

نقص هذا العطاء، فى الوقت التى زادت فيه ثروات بيت المال لتدفق الأموال على أثر الانتصارات والفتوحات الإسلامية، . . وكان عثمان قد أغدق على مروان بن الحكم من هذه الأموال مما أثار التساؤل فى ذهن أم المؤمنين عائشة عما دفعه إلى إنقاص ما يخصها من عطاء، بالرغم أنها غير حريصة على المال أو الثراء، ولكنها كانت تعطى المحتاجين.

كما أثارها أن بعض الوفود التى كانت تنكر على حكامها سوء السلوك كانوا يلجأون إليها، ويشكون لها أحوال الناس وما أصابهم من بعض هؤلاء الولاة. . الذين اتهم بعضهم بشرب الخمر، واتهم البعض الآخر بالقتل. . فقد اتهم عبد الله بن أبى السرح بقتل أحد الرعية. . حتى إنها أرسلت إلى عثمان تقول له:

«تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل - عبد الله بن أبى السرح - فأبيت، فهذا قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملك».

وقد ضاقت السيدة عائشة بسياسة عثمان، حتى إن بعض الرواة يقول إنها أظهرت قميص النبى، وقالت للناس:

«يا معشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته».

* * *

وقررت السيدة عائشة أن تخرج من المدينة، وقررت أن تذهب إلى مكة رغبة فى الحج.. ابتعادًا عن الفتنة.

وفى مكة علمت بمقتل عثمان وتولى على بن أبى طالب.. وهنا يقول الرواة إنها لم تكن محبذة أن يتولى على ابن أبى طالب الخلافة، فهى لم تنس له أبدًا، عندما انتشر حديث الإفك، قوله للرسول ﷺ: "تزوج يا رسول الله.. فالنساء كثير" و.. كان هذا هو سر صراعها مع رابع الخلفاء الراشدين الإمام على كرم الله وجهه.

* * *